المحور العاشر: مارجوليوت وآراؤه في اللغة العربية والشعر الجاهلي

المستشرق الإنجليزي ديفيد صموئيل مرجليوث ولد في لندن عام 1858 وتوفي عام 1940، بدأ حياته العلمية بدراسة اليونانية واللاتينية ثم اهتم بدراسة اللغات الشرقية وتخصص فيها وتخرج من جامعة أكسفورد، أتقن اللغة العربية وكتب فيها بسلاسة وأقام أستاذًا لها بجامعة أكسفورد البريطانية في الفترة من 1889 إلى 1937، وعد من أشهر أساتذتها وبين أئمة المستشرقين، زار معظم بلدان الشرق الأوسط وتعرف على أدباء العالم العربي وكان لآرائه قدرها عندهم، وكان أحد محرري دائرة المعارف الإسلامية، وقد اختاره المجمع العلمي العربي في دمشق عضوًا مراسلًا عند نشأته في سنة 1920م. كما كان عضوا بالجمعية الآسيوية الملكية، ثم أصبح رئيسا لها فيما بعد، كذلك كان عضوا بالمجمع اللغوي لمصر، والمجمع العلمي بالعراق. لكنه كان يؤدي رسالته كقنصل من قناصل الاستعمار، الذي بدا في ثوب مستشرق، وفي زي باحث، وفي هيئة أستاذ جامعي ولغوي مرموق.

ولكنه وصف بالتعصب والتحيز ضد المسلمين والخروج عن الموضوعية من قِبَل نقاده، له كتب عن الإسلام والمسلمين، لم يكن مخلصاً فيها للعلم، ومن أشهر مؤلفاته ما كتبه في السيرة النبوية، وكتابه عن الإسلام، وكتابه عن العلاقات بين العرب واليهود. ولكن يحسب له اهتمامه بالتراث العربي كنشره لكتاب معجم الأدباء لياقوت الحموي، ورسائل أبي العلاء المعري وغير ذلك من الأبحاث. قد أهداه أحمد شوقي قصيدة النيل. كان مرجليوث من أكثر المستشرقين حيوية ونشاطًا؛ فقد أحصى له العقيقي ثمانية وستين أثرًا بين كتاب في أجزاء وبحث ومقالة وترجمة وفهرس وتعليق، وباللغات الإنكليزية واليونانية والسريانية والعبرية والفارسية والعربية والألمانية وغيرها.

وأهم أعماله: تحقيق رسائل أبي العلاء المعري متنًا وترجمة مع شرح وتذييل وترجمة الأعلام، وكتاب محمد ونشأة الإسلام في 481 صفحة، وتحقيق كتاب معجم الأدباء لياقوت الحموي في سبعة أجزاء، وكتاب الإسلام، وتحقيق كتاب الأنساب للسمعاني، والعلاقات بين العرب واليهود، والتطورات المبكرة في الإسلام، وأصول الشعر العربي، وكتاب القرآن، وكتاب التطورات المبكرة في الإسلام، وكتاب الجامعة الإسلامية وغير ذلك. وهو المستشرق الذي فتن به طه حسين وعلي عبد الرازق، وأخذا عنه كتاب "الإسلام وأصول الحكم" كما أفاد بذلك عشرات الشهود والباحثين، وفي مقدمتهم الدكتور ضياء الدين الريس، في كتابه الفاصل "النظريات السياسية في الإسلام"، والعلامة الدكتور إبراهيم عوض حديثا.

ومن أهم ما قام به مرجليوث، ترجمة كتاب "تاريخ التمدن الإسلامي" بأجزائه الخمسة للأديب اللبناني جورجي زيدان، وتقرير تدريسه من قبل أستاذ اللغة العربية المستشرق الألماني يوسف هارويز كمنهج دراسي على طلاب جامعة "عليكرة" في الهند "إحدى كبرى المستعمرات البريطانية، وأحد أضخم التجمعات الإسلامية العالمية أيضا". وكذلك كان مرجليوث قد وضع عام 1905 كتابه الشهير "محمد ونشأة الإسلام" وكان غاصا بالاختلاقات الكاذبة، والتشويه العمدي، والتدليس المشين، الذي وجد فيه الدكتور يوسف هارويز ضالته وقرر تدريسه هو الآخر بنفس الجامعة.

فوقف لهم العلامة الهندي الكبير الشيخ شبلي النعماني، الذي كان يعمل بجامعة عليكرة أستاذا للغة العربية والأدب العربي، منذ يناير/كانون الثاني 1883 لما رأى من فرض وتدريس لمناهج خبيثة، ودسها بكل نعومة ودهاء. ووجد هذا الالتفاف من مرجليوث، بالتعاون مع أحد أهم مساعدي المستشرقين في العالم "جورجي زيدان".. الذي كان وثيق الصلة بهم، وعمل موظفا رسميا بوزارة المستعمرات البريطانية، ضمن جهاز المخابرات كمترجم.

وكانت هناك علاقة ثقافية واسعة بين العلامة شبلي النعماني وجورجي زيدان، حيث كان زيدان ينشر للعلامة النعماني بالهلال بصفة دائمة تقريبا، وبينهما مراسلات وعلاقات، ضمن الإطار الثقافي الذي كان يجمع كل الناطقين بالعربية بمصر في ذلك الوقت، باعتبارها قلب العروبة والثقافة والإسلام. يقول العلامة الشيخ شبلي النعماني في "الانتقاد على التمدن الإسلامي" (طبعة الهند): "لما نشر زيدان ذلك، وكنت دائم التصويب والتصحيح له، ولكنه لما لم يجد من يرد عليه في المنطقة بأسرها، ووجد الجو صافيا.. فأرخى العنان، وتمادى في الغي، وأسرف في النكاية بالعرب، عموما وخلفاء بني أمية خصوصا." ويتابع "وكان يمنعني من النهوض إلى كشف دسائسه، اشتغالي بأمر "ندوة العلماء".. لكن لما عمّ البلاء وتوسع الخرق وتفاقم الشر، لم أطق الصبر فاختلست من أوقاتي أياما، وتصديت للكشف عن عوار هذا التأليف، وإزالة ما فيه من الدس والإفك والزور، وأصناف التحريف والتدليس."

ولما وجد العلامة شبلي النعماني هذه الأفعال المطوقة لأبناء المسلمين، ما بين تعاون "مرجليوث ويوسف هارويز وجورجي زيدان".. قرر قطع صلته نهائيا بجورجي زيدان، وقام عام 1911 بوضع مؤلفه العلمي الرصين "الانتقاد على تاريخ التمدن الإسلامي للفاضل جورجي زيدان." ثم أرسله إلى رشيد رضا لينشره بالمنار في مصر، حيث كان له دور كبير ومبكر، في إماطة الأخطاء التي نسبها جورجي زيدان للتاريخ الإسلامي والتي دسها بنعومة وذكاء.

وقد وضع شبلي النعماني مؤلفه الفخم باللغة العربية، وكان يتقن العربية والإنجليزية والفارسية والهندية والأردية والتركية والفرنسية. وبأرقى درجات الأدب، تناول شبلي النعماني، تصويب وتصحيح أوهام وتدليس ودسائس جورجي زيدان، لتكون الرسالة أتم وأبلغ.. بلسان عربي مبين، لأن روايات زيدان في ذلك الوقت، كانت

قد لقيت رواجا منقطع النظير، بفضل الآلة الترويجية الميسرة والمسيرة، لمثل هذا النوع من الاختراق المفعم بالتشويه الناعم، والسم المعسول.

يقول محرم جلبي: "كان زيدان ينهج النهج الغربي في كل ما كتب، تحت تأثير المستشرقين.. خاصة من يحملون وجهة النظر المعارضة والمعادية للإسلام، من أمثال دي ساسي وبروكلمان ونولدكه وسيدي وفون كريمر وجولدتسيهر وغيرهم."

وكذلك لجدة فن الرواية في ذلك الوقت، وإتقان جورجي زيدان للتسلل من خلال هذا الفن الجديد، بحمل التاريخ في طياته، حتى حدا الأمر ببعض كبار المفكرين العرب أن يقول: "إنما جورجي زيدان أراد أن يعلمنا تاريخنا من خلال هذه الرواية التي ابتكرها وأضافها إلى أدبنا الجديد."

ومن المعروف أن "ديفيد مرجليوث" هو أول من شكّك في أصول اللغة العربية، وأول من شكك في الشعر الجاهلي القديم وفي مصدريته للغة والتاريخ، وخرج من نظريته تلك، بنتائج في غاية الخطورة، مفادها الشك في تاريخ الأنبياء والقرآن نفسه.

على أن كل ما تقدم من كلام على مرجليوت، ليس إلا غيضاً من فيض ما فجره من جدل في الشرق والغرب معاً. حينما أقدم على التشكيك بصحة الشعر الجاهلي في مقالته الشهيرة الموسومة (أصول الشعر الجاهلي) التي نشرها في مجلة الجمعية العلمية الملكية سنة 1925، وقطع فيها أو كاد يقطع، بأن ما وصلنا من شعر جاهلي ما هو إلا شعر نظمه الرواة بعد أن استقرت الدولة الإسلامية وانتفت أسباب الخوف من الارتداد عن الإسلام، وقد حشد للتدليل على صحة ما ذهب إليه العديد من الحجج العقلية والنقلية التي لا يستهان بها. ومن نافل الحديث القول بأن ما جوبهت به نظريته هذه من إنكار في الشرق خاصة، مرده إلى ما تخللها من اتهامات تمس نبي الإسلام. ومن ثم التشكيك التام بتفرد الإسلام ومصدره الإلهي.

هذه النظرية التي صاغها مرجليوت بدهاء لا تخطئه عينا الناقد الفطين، ظاهرها القطع بأن كل أو جل ما وصل إلينا من الشعر الجاهلي، لفقه رواة محترفون مثل حماد الراوية وخلف الأحمر، لكن باطنها يفضي وفقاً لما تفرد الدكتور ناصر الدين الأسد بتجليته في كتابه الذائع "مصادر الشعر الجاهلي"، إلى ما يلي:

1. أن العرب في العصر الجاهلي كانوا على درجة كبيرة من التحضر والرقي سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً، وقد جاء الإسلام فقطف ثمار هذا الرقي ونسبها لنفسه، ثم صوّر العرب في العصر الجاهلي بداة رعاة غاشمين.

2. أن العرب في العصر الجاهلي عرفوا الإسلام بصور متعددة، وأن النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، قد أعاد بناء وصياغة هذه المعرفة وقدمها على أنها رسالته الجديدة غير المسبوقة.

3. أن الإسلام والقرآن، ما هما إلا تحريفان صارخان، لكل من اليهودية والمسيحية من جهة، والتوراة والإنجيل من جهة ثانية.

4. أن الكتاب يمثل تحريضاً للباحثين والأساتذة والطلاب على الانتقال من التشكيك في التاريخ القديم السحيق، إلى التحريض على التشكيك في التاريخ الحديث والأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية القائمة.

فرفض الشعر الجاهلي والإسلامي أو التشكيك فيهما هو تشكيك بفصاحة العرب، ولا ريب أن القرآن نزل بلسان عربي مبين على أمة البلاغة والفصاحة والنظم، وهذا يعد وجها من وجوه الإعجاز، فسمو بلاغة الفرقان ونظمه وبديع أسلوبه أعجز أساطين البيان. ناهيك عن تحامله على النبي – صلى الله عليه وسلم – وسيرته الشريفة، وتأويله الخاطئ لكثير من أحداث السيرة النبوية، وتشكيكه في الأسانيد معارضا بذلك ما توصل إليه المحققون.